نوح أول رسول بُعث إلى البشر

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾

[سورة نوح: ١ – ٣]

obeikandl.com

obeikandl.com

نوح أول رسول بعث إلى البشر

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾

[نوح: ١ - ٣]

عندما يقص القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين، فهو يرسم لنا حياة هؤلاء الرسل، وكيف عانوا ما عانوا فى سبيل تبليغ ما كلفهم به الله عز وجل من رسالة، وكيف ينتصر النور على الظلام، والهدى على الضلال.

كما أن القرآن الكريم وهو يحدثنا عن هؤلاء الأنبياء والمرسلين، يبلغ النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام بما كان عليه الأنبياء من قبله... وأنهم عانوا مثل ما عانى من جحود ونكرانهم أقوامهم، وكيف قاوم هؤلاء كل دعوات الإيمان... ولم يكتفوا بذلك، بل إنهم غالوا فى العداوة فاعتدوا على الأنبياء والرسل، وهددوهم بالنفى والقتل والتشريد.. ولكن كلمة الله دائمًا هى التى يكون لها النصر فى النهاية مهما تكن صعوبات الطريق.

وكانت كل رسالات الله إلى رسله تدعو إلى التوحيد ونبذ عبادة كل ما دون الله، والتوحيد يقتضى اتباع شرائع هؤلاء الأنبياء التى جاءت من عند الله، بإحلال ما أحلت، وتجنب ما حرمت من أمور.

وكانت دعوة نوح - عليه السلام - هى دعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، ونبذ عبادة الأصنام التى كان يعبدها الناس فى عصره.

وهناك حديث فى صحيح البخارى عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام» والقرن المقصود هنا ليس مائة عام، ولكن يُقصَد بالقرن الجيل من الناس. كما فى قوله تعالى:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقوله:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣١].

وكما فى قوله عليه الصلاة والسلام: «خير القرون قرنى».

* * *

ويقول الإمام ابن كثير: وكان قومه يقال لهم بنى راسب، فيما ذكره ابن جبير وغيره.. واختلفوا فى مقدار سنه يوم بُعِث، فقيل كان ابن خمسين سنة، وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل ابن أربعمائة وثمانين سنة حكاها ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

ويقول أيضًا:

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه الله وأصحاب السفينة، فى غير موضع من كتابه العزيز، فقد ذكر فى سور: الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات، وأنزل فيه سورة كاملة (سورة نوح).

* * *

ولعل السن الطويلة التى عاشها نوح (ألف عام إلا خمسين) جعلت البعض يتعجب من هذا العمر الطويل الذى عاشه نوح، حتى أننا نرى شاعرنا الفيلسوف أبا العلاء المعرى يقول:

ورووا للمعمرين أمورًا لست أدرى ما هن فى المشهور.

أتراهم فيما تقضَّى من الأيام عدوا سنيَّهم بالشهور.

كلما لاح للعيون هلال كان عامًا لديهمو فى الدهور.

هكذا تبقى وإلا فإن العقل يثنى فى حالة المبهور.

أى أن شاعرنا الفيلسوف كان يرى أن السابقين فى العصور القديمة جدًا كانوا يحسبون مرور كل شهر قمرى عامًا.

وإذا كان القرآن الكريم يقول إن عمر نوح هو (٩٥٠) سنة، فإن التوراة تقول إن آدم عاش (٩٣٠) سنة!

obeikandl.com

رسالة نوح

لقد طال على الناس الأمد، فنسوا رحيق التوحيد الذى جاء به آدم عليه السلام.. وابتعدوا عن الإيمان بالله، واتخذوا من الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله، وما داموا قد ابتعدوا عن الإيمان فلابد أن يسود الفساد، وتبذر بين الناس بذور العداوة والانحلال.. ولا يصبح هناك قانون يحرم الحرام، ويحل الحلال.

لقد دعاهم نوح إلى نور التوحيد فصموا آذانهم.. وضح لهم طريق الهداية فأداروا له ظهورهم.. جاءتهم كلماته الهادية:

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ردد عليهم تعاليم السماء:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح: ١٠ - ٢٠].

دعوة إلى التفكير.. دعوة إلى الناس ليتدبروا الكون الذى يعيشون فيه وما فيه من مفاهيم الوجود، وما فيه من مقومات حياتهم.. خلق الله الشمس تنير لهم طريق الحياة، والقمر يضىء لهم ظلام الليل، ويعرفون من خلاله عدد السنين والشهور... وخلق لهم الهواء الذى يتنفسونه، والماء الذى منه كل شىء حى، والأرض التى تخرج لهم من النباتات رزقًا لهم، والحيوانات التى يستأنسون بعضها ويأكلون بعضها الآخر!

ولكن القوم لم يعد عندهم رغبة فى التفكير. لقد استسهلوا ما وجدوا عليه الآباء والأجداد، وزادت سخريتهم لنوح عليه السلام، الذى قال لهم:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح: ٢ - ٤].

وكلما دعاهم نوح - عليه السلام - زادت سخريتهم منه، وظلوا عاكفين على عبادة هذه الأصنام التى أطلقوا أسماء: يغوث، وسواع، ويعوق، ونسرا.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

وقد فسر ابن عباس هذه الآية: هذه أسماء رجال صالحين من قوم

نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبَد، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عُبِدَت!

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثانُ التى كانت فى قوم نوح فى العرب فيما بعد.

* * *

ونمضى مع أحداث سيرة نوح عليه السلام.. فنرى أن قومه استخفوا به وبدعوته، واتهموه بالضلال.

﴿ قَالَ الْمَلأُ من قَوْمِه إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٠، ٦١].

وطال الجدل.. وطال النقاش.. إنهم يماطلون ويهددون ويتوعدون، وهو يذكرهم بأنهم لو لم ينصاعوا لأمر الله فسوف يأتيهم عذاب مقيم، وقالوا له:

﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [هود: ٣٢، ٣٣].

* * *

وأوحى الله إلى نبيه أن يبنى سفينة، حتى يمكنه أن ينجو من

الطوفان هو ومن اتبعه من المؤمنين. هذا الطوفان الذى سوف ينهى حياة هؤلاء الكافرين، ويعيد للحياة رونقها، وتشرق الأرض بأنوار الإيمان... فهؤلاء المنكرون للرسالة لم يعد يجدى فيهم وعظ ولا وعد ولا وعيد، وإنه آن الآوان لهلاكهم... وإن الذين آمنوا به هم الذين سوف يعمرون الأرض، وإن الأخوة التى تربط بين قلوبهم.. أخوة الإيمان.. أقوى عند الله من قرابة الرحم، فقد هلك فيمن هلك ابن نوح نفسه، الذى كفر بدعوة أبيه!

وعندما أخذ نوح فى صنع السفينة كان قومه يسخرون منه ومن وعيده:

﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

وكان يقول لهم:

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

وقال لهم وهو يرد على ضحكاتهم المستهترة:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٩].

وجاء أمر الله، وركب السفينة أنصار نوح عليه السلام، وحملوا معهم من كل زوجين اثنين.. ونادى نوح ابنه أن يركب السفينة حتى

ينجو، ولكنه رفض:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

لقد حدث الطوفان العارم.. بعد أن دعا نوح ربه بهذا الدعاء:

﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

وتتكاثر السحب فى السماء.. وتغيب الشمس وراء هذه الحجب الكثيفة من السحب.. ويعم الظلام.. وترتجف القلوب وهم يرون مشهدًا لم يشهدوا مثله من قبل، وتزمجر الرياح، ويشتد الهول والعيون تنظر إلى السماء المتجهمة، وقبل أن تتساقط الأمطار الغزيرة لتغمر الكون فى مشهد لم تعرفه الإنسانية من قبل، كانت الأرض تتفجر هى الأخرى بالمياه... وترتفع السفينة شيئًا.. فشيئًا.. بينما الناس فى ذعر يجرون هنا وهناك يلتمسون قمم الجبال، ووسط هذا الهول يرى نبى الله نوح ابنه ويناديه:

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: ٤٢].

ويجيبه الابن:

﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

يقول له نوح:

﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣].

ولا يجد نوح إلا الله فى هذه الساعات الصعبة يلجأ إليه وقد أحس بعاطفة الأبوة:

﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٢ - ٤٥].

ويوحى إليه العزيز الجبار:

﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٨].

وهنا يشعر نوح أن عدل الله لا يفرق بين ابن نبى وابن أى إنسان آخر.. لقد آن الأوان ليسود العدل الإلهى... ويشعر نوح بالخوف الشديد من ربه... إنه فى هذه اللحظات الحاسمة والمصيرية لا يريد أن يغضب الله عز وجل فيتوجه إليه بقلب خاشع:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [هود: ٤٧]

ورنت نظرة من نوح إلى الطوفان الذى يقتلع أمامه كل شىء.. والأمواج التى تغرق الجميع.. والتى ابتلعت ابنه فيما ابتلعت... ولا يرى أمامه إلا الأمواج الكاسحة التى ترعد وتبرق وتنزل أمطارها الغزيرة التى لا يتصورها عقل أو خيال.

ويجيء الأمر الإلهى بعد أن أدى الطوفان مهمته.. ولا أحد يعرف كم مكث هذا الطوفان قبل أن تنقشع السحب.. وتشرق الشمس... وتتوقف المياه وتنحسر... وترسو السفينة على جبل الجودى... ويصور القرآن الكريم هذا المشهد فى كلمات قليلة موحية ومعبرة:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤].

وينظر نوح إلى الموجودات من حوله.. فلا يجد إلا الصمت.. وقد خلت الحياة من هؤلاء الذين رفضوا الإذعان لأمر الله.. وأبوا الإيمان!

* * *

يقول الشيخ محمود شلتوت وهو يفسر سورة نوح:

(قوبل النبى ﷺ منذ أن دعا إلى توحيد الله وعقيدة البعث بموجة شديدة من الإنكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية، وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون من أساليب الدعوة التذكير بما أصاب الأمم الخالية جزاء الإنكار والتكذيب).

وفى هذه السورة يقص الله على نبيه موقف أول رسول بعثه للبشر فدعاهم إلى مثل دعوته. وقوبل منهم بمثل ما قوبل به، تثبيتًا له على دعوته، وتسلية له فيما يصيبه، وتهديدًا لقومه إن استمروا على العناد

والاستهزاء بعاقبة أسلافهم حينما استمروا على الكفر والعناد.

وللعرب رابطة خاصة بنوح عليه السلام، هى رابطة البنوة، ففى التذكير بقصته تهديد لهم بجانب ما كانوا فيه من النقمة التى أخذت المكذبين، وامتنان عليهم بما كان فيها من النعمة التى أنقذ بها نوح، ومن آمن معه، ومنه كان آباؤهم الذين بواسطتهم ظهروا فى الوجود، وتكونوا شعوبًا وقبائل وانتشروا فى الأرض، وإلى هذا تشير آية الحاقة:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١].

وقد تكررت فى القرآن بأساليب مختلفة بين الطول والقصر تسلية للرسول، وتذكير القوم بقصة نوح عليه السلام.

ويقول عن دعوة نوح وأصولها والأمور التى عنيت بها: إنها ترتكز على أصول ثلاثة:

* عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام.

* تقوى الله باجتناب المعاصى التى تفسد الأخلاق وتفكك الروابط بين الجماعات.

* إطاعة الداعى فيما يأمر به عن ربه.

وهذه الأسس الثلاثة هى دعوة كل رسول جاء بعده، وهى

مصاعد الحياة الطيبة، تعلو الأمم إذا تمسكت بها، وتسقط إذا انحرفت عنها.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِه أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح: ١ - ٤].

وبعد أن يحدثنا عن فوائد الدعوة، وسبلها، وما صادفها من عناد وإعراض، وعاقبة هؤلاء المكذبين يقول: فتلك قصة نوح كما وردت فى سورة نوح، قصها الله على كفار مكة وعلى جميع الناس، وهى مثال حى ناطق بسنة الصراع بين الحق والباطل فى كل زمان ومكان. وناطق بأن فساد العقلية البشرية ليس من أصل الطبيعة وإنما هو من خداع المستكبرين الماكرين، وناطق بأن الحق مهما طال ركوده لا بد أن يعلو صوته وينتشر فى العالم ضوؤه، ويعم الكون خيره.

وهكذا ستكون عاقبتك يا محمد وعاقبة كل من اهتدى بهديك، وسار على سنتك فى الدعوة إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

وإذا تحدثنا عن نوح عليه السلام نفسه، وكيف كان صومه وعبادته، نرى أن الإمام ابن كثير فى قصص الأنبياء يروى الكثير عن أول الأنبياء المرسلين، ويروى عنه بعض أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، ومنها قوله: «صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر وعيد الأضحى».

ويروى حديثًا آخر يقول فيه الرسول ﷺ: « صام نوح الدهر إلا يوم الفطر ويوم الأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر وأفطر الدهر».

ويروى عنه أيضًا وصية نوح لابنه كما ورد ذلك عن رسول ﷺ فى قوله:

«إن نبى الله نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إنى قاصّ عليك وصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفة ووضعت لا إله إلا الله فى كفة رجحت بهم لا إله إلا الله. ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتين لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شىء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر».

قال: قلت ـ أو قيل ـ يا رسول الله: هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟

قال: «لا».

قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟

قال: «لا».

قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟

قال: «لا».

قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟

قال: «لا».

قلت ـ أو قيل ـ يا رسول الله: فما الكبر؟

قال «سفه الحق وغمط الناس».

ويقول الإمام ابن كثير أيضًا:

ويزعم أهل الكتاب أن نوحًا عليه السلام ـ لما ركب السفينة ـ كان عمره ستمائة سنة، وقدمنا عن ابن عباس مثله وزاد وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة، وفى هذا القول نظر، ثم إن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض، فإن القرآن يقتضى أن نوحًا مكث فى قومه بعد السفينة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. . ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك.

ويقول ابن كثير أيضًا:

فإن كان ما ذكر محفوظًا عن ابن عباس من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنة، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكن قد عاش على هذا ألفًا وسبعمائة وثمانين سنة، ويرجح ابن كثير أنه دفن بالمسجد الحرام على عكس ما ذكره الآخرون، والله أعلم.

* * *

ولا شك أن قصة الطوفان قد دخلها الكثير من الأساطير والإسرائيليات.. فقد تحدث البعض كثيراً عن طول السفينة وعرضها، وكيف وضعت فيها الحيوانات والطيور من كل زوجين اثنين لتكون هذه الكائنات نقطة انطلاق للحياة الجديدة على الأرض بعد الطوفان.

ولا أحد يعرف بالضبط كم كان عدد الناجين من قوم نوح، وإن كان الألوسى فى تفسيره يرى أنهم كانوا تسعة وسبعين: زوجته وبنوه الثلاثة ونساؤهم واثنان وسبعون رجلا من غيرهم.

وقصة نوح - عليه السلام - ترينا كيف صبر الرجل وصابر فى سبيل دعوة قومه إلى التوحيد الخالص وعبادة الله وحده، وأنه لم تلن له قناة وهو يدعو هؤلاء الذين عاش بينهم فلم يجد منهم إلا الازدراء والاستهزاء.. كما ترينا هذه القصة أن الله سبحانه وتعالى يقص على رسوله عليه الصلاة والسلام القصص السابقة فى العهود الغابرة حتى يواصل دعوته موقنًا بأن النصر فى النهاية للإيمان والمؤمنين.

وللدكتور محمد سيد طنطاوى مفتى جمهورية مصر العربية رؤية لهذه القصة.. أوردها فى تفسيره (التفسير الوسيط للقرآن الكريم) وهو أن القرآن الكريم فى إبرازه للقصص والأخبار لا يهتم إلا بإبراز النافع المفيد منها، أما ما عدا ذلك مما لا فائدة من ذكره فيهمل القرآن الحديث عنه.

فمثلاً فى قصة نوح عليه السلام لم يتعرض القرآن لبيان المدة التى

قضاها نوح فى صنع السفينة، ولا لبيان طول السفينة وعرضها وارتفاعها، ولا لتفاصيل الأنواع التى حملها معه فى السفينة، ولا لبيان الفترة التى عاشها نوح ومن معه فيها.. ولا لبيان المكان الذى هبط فيه نوح بعد أن استوت على الجودى.. ولا لبيان الزمان الذى استغرقه الطوفان فوق الأرض.. وما ورد فى ذلك من أقوال وأخبار فأكثرها من الإسرائيليات التى لا يؤيدها دليل من الشرع أو العقل.

ومن المسائل التى تكلم عنها كثير من العلماء، وذهبوا بشأنها مذاهب شتى مسألة الطوفان.

وقد أصدر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ فتوى فى هذا الشأن، ملخصها كما يقول صاحب المنار: إن ظواهر القرآن والأحاديث أن الطوفان كان عامًا شاملاً لقوم نوح الذين لم يكن فى الأرض غيرهم فيجب اعتقاده، ولكنه لا يقتضى أن يكون عامًا للأرض، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملأون الأرض. وهذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن، ولذلك لم يبينها بنص قطعى، فنحن نقول بما تقدم أنه ظاهر النصوص، ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية، فإن أثبت العلم خلافه لا يضرنا، لأنه لا ينقض نصًا قطعيًا عندنا.

ويقول الدكتور سيد طنطاوى أيضًا:

إن سنة الله تعالى فى خلقه لا تتخلف ولا تتبدل وهى أن العاقبة

للمتقين، مهما يطل الصراع بين الحق والباطل، وبين الأخيار والأشرار.

فلقد لبث نوح - عليه السلام - فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وقد لقى خلال تلك المدة الطويلة ما لاقى من الأذى. ولكن كانت النتيجة فى النهاية نجاته ومن معه من المؤمنين، وإغراق أعدائه بالطوفان العظيم.

ولقد أفاض صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث عن هذا المعنى فقال ما ملخصه:

ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح، لنرى قيمة الحفنة المسلمة فى ميزان الله سبحانه.

إن حفنة المسلمين من أتباع نوح عليه السلام تذكر بعض الروايات أنهم اثنا عشر، وهم كانوا حصيلة دعوة نوح فى ألف سنة إلا خمسين عامًا.

إن هذه الحفنة ـ وهى ثمرة العمل الطويل والجهد الطويل ـ وقد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون، وأن يجرى لها ذلك الطوفان الذى يغمر كل شىء. وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هى وارثة الأرض بعد ذلك، وبذرة العمران فيها.

وهذه هى عبرة الحادث الكونى العظيم.. إنه لا ينبغى لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى

قوة إفراد الله ـ سبحانه ـ بالعبودية.. كما أنه لا ينبغى له أن يقيس قوته الذاتية إلى قوة عبده الذى يستنصر به حين يغلب فيدعوه. ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

إن القوى فى حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة، وإن الجاهلية تملك قواها، ولكن الداعى إلى الله يستند إلى قوة الله، والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية ـ حينما يشاء وكيفما يشاء ـ وأيسر هذه القوى أن يدمر الجاهلية من حيث لا يحتسب أحد!

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملاً، ثم يتركوا الأمور لله فى طمأنينة وثقة، وعندما يُغلَبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين، وأن يجأروا إليه وحده كما جأر عبده الصالح نوح عليه السلام.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠].

ثم عليهم أن ينتظروا فرج الله القريب، وانتظار الفرج من الله عبادة، فهم على هذا الانتظار مأجورون.. والعافية للمتقين.

***